المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى

بحث مقدم من

الأستاذ الدكتور

محمود سعيد عمران

المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى

ينصب هذا البحث على دراسة بعض المراكز الحضارية في مصر والشام في القرون المسيحية الأولى، ونخص بهذه المراكز مدينة الإسكندرية، وغزة، وقيسارية، وبيروت، وأنطاكية، للتعرف عليها وعلى بعض علمائها وأنواع الحضارة فيها، وإلى أي مدى أثر وتأثر بعضها ببعض في تلك المرحلة الموغلة في القدم، والتي كان لها أكبر الأثر على المنطقة بأثرها حتى يومنا هذا.

وإذا بدأنا بمدينة الإسكندرية نقول إن المدينة بلغت في العصر قبل المسيحي درجة عالية من النهضة العلمية حتى أصبحت العاصمة الثقافية للمنطقة، وكانت أروقتها تزخر بالوافدين إليها من العلماء والطلاب من الأنحاء كلها حاملين معهم ثقافتهم. وعاش في المدينة أهلها الوطنيون بدياناتهم واليونان بفلسفاتهم، والرومان بقوانينهم، فضلاً عن الطائفة اليهودية وبعض الأجناس الأخرى، وكان لهؤلاء كلهم آلهتهم وعاداتهم وثقافاتهم المختلفة.

وقد تقابل هؤلاء كلهم وتناقشوا واتفقوا مرة واختلفوا مرات، وعلى الرغم من هذا فقد نتج عن هذا نوع من الحوار الفكري أفرز مذاهب فكرية جديدة لمحاولة التوفيق بين هذه المعتقدات كلها، التي عرف أهمها باسم الحركة التوفيقية Syncretism، ولكنهم لم يتوصلوا إلى فكرة الإله الواحد، وفي معترك هذه الأحداث ظهرت المسيحية في مصر على يد القديس مرقص، وعلى يديه أيضًا أنشئت المدرسة المسيحية اللاهوتية في الإسكندرية[1].

وكان على المسيحية أن تقاوم في اتجاهين؛ الأول هو اضطهاد الحكام الوثنيين، والثاني هو الأديان المضادة وفلسفاتها، وبذلك بدأ الصراع الفكري بين المسيحية والوثنية؛ وحتى تنتصر كل جماعة على الأخرى درس كل فريق مؤلفات الجانب الآخر، وكان واقع الحال أن الصراع بين الدين والعقل لم يسلم

---

(1) Attwater, Dictionary of Saints, Penguin, 1975, pp. 231 - 2 - 1.

بالمعجزات، ونتج عن ذلك الفلسفة الغنوسية Gnosticism، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة Neoplatonism[1].

والغنوسية هى المعرفة، وبذلك ميز أصحاب هذه الفلسفة أنفسهم عن أصحاب الديانات، ووضعوا من قدر الدين ورفعوا من شأن المعرفة لأنهم وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين واعتقد أصحاب هذا المذهب أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، هى الروح والجسد والنفس، وقسموا الناس وفق العنصر الغالب فيهم إلى ثلاثة طبقات.

الأولى الروحيون الذين يسيطر عليهم العنصر الإلهى ويرتفعون فوق المادة، والثانية الجسديون، وهم العامة الذين يتعاملون بالمادة، والثالثة النفسانيون، وهى طائفة متوسطة بين الروح والجسد، وقد انتشرت هذه الفلسفة فى مصر ومنها إلى الأقاليم المجاورة خاصة بلاد الفرس[2].

أما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فقد ولدت فى الإسكندرية على يد أمونيوس سقاس Ammonuis Saccas، وهو سكندرى لوالدين مسيحيين، وقد تولد لديه هذا المذهب الذى كان مزيجًا من فلسفات أفلاطون Plato وأرسطو Aristotle، وواقع الحال أن هذه الفلسفة قد أخذت اتجاهًا مختلفًا عن الفلسفات السابقة لأنها قامت على نظم دينية، وتولى أمونيوس حوالى عام ٢٣٤م دون أن يترك كتابًا عن فلسفته، ولكن الباحثين تلقوها من تلميذه أفلوطين Plotinus، وبورفيرى Porphry خليفته، وأوروجين Origen، كما أثرت هذه الفلسفة على القديس أوغسطين St. Augstine[3].

تقدمت المسيحية واعترف بها الإمبراطور قسطنطين Constantine

---

(1) Mullett and Scott. Byzantium and the Classical Tradition, Univ. of Birmingham, 1979, pp. 11, 15 - 6.

(2) Hussey, J.M (ed.) Cambridge Medieval History, Cmbridge, 1987, Vol. IV, Part 11, pp. 201, 348.

(3) Saint Augustine, Confessions, Penguins, 1961, pp. 144 ff.

(٣٠٥ - ٣٣٧) دينًا داخل الدولة بموجب مرسوم ميلان عام ٣١٣م إلا أن الوثنية ظلت محتفظة بنفوذها الثقافي، وأخيرًا اعترف الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥م) بالمسيحية دينًا رسميًا للدولة، فضعف نفوذ الفلاسفة الوثنيين وفكرهم.

وبدأت مدرسة الإسكندرية المسيحية، ووضعت أسسًا منهجية لتعليم الوثنيين وغيرهم الذين دخلوا في الديانة المسيحية، وأصبح عمل المفكرين المسيحيين إعداد أجيال متفهمة للدين المسيحي، والرد على كل ما يوجه إلى المسيحية من نقد أو تحريف، والتبشير بها، وهكذا نمت مدرسة الإسكندرية حتى أطلق عليها المؤرخ الكنسي يوسابيوس "أكاديمية الإسكندرية"[١].

ومن الذين تولوا إدارة مدرسة الإسكندرية العالم المسيحي بانتانوس Pantaenus الذي وصفه المؤرخ يوسابيوس بأنه كان أعظم علماء عصره، وكانت له في نهاية القرن الثاني الميلادي سمعة كبيرة في الأرجاء كافة، وكان يدرس معه نخبة ممتازة من علماء عصره، وللعالم بانتانوس باع كبير في تهذيب اللغة القبطية، وله شروح على الإنجيل وتفاسير كثيرة في اللاهوت وقد سافر إلى الهند حوالي عام ١٩٠م بناء على رغبة بعض الهنود الذين حضروا إلى الإسكندرية ليتعلموا على يديه[٢].

وجاء بعد بانتانوس كلمنت Clement لإدارة مدرسة الإسكندرية، وهو سكندري ولد لأبوين وثنيين عام ١٦٠م ثم اعتنق المسيحية، وقد درس الفلسفة وجال في بلاد اليونان ثم جنوبيّ إيطاليا، ثم لبنان وفلسطين وخالط أهلها وأخيرًا جاء إلى مصر، ثم استقرت به الحال في الإسكندرية، وتعلم على يد بانتانوس وخلفه في إدارة المدرسة.

---

(١) Eusebius, The History of the Church, Penguin, 1981, pp. 103, 124.

(٢) Eusebius, Op. Cit., 258 - 9.

وأهم ما قدمه كلمنت أنه أدخل العلوم الفلسفية واللغات والبلاغة والشعر والمنطق والموسيقى والفلك والجغرافيا وغير ذلك فى مناهج المدرسة؛ ولعل أهم ما قدمه هو تحديد العلاقة بين الفلسفة والدين المسيحى، وعندما اشتد الاضطهاد بمدينة الإسكندرية فى عام ٢٠٢م غادر كلمنت مدينة الإسكندرية فأغلقت المدرسة مؤقتًا[١].

وفى عام ٢٠٤م تولى أورجين إدارة المدرسة، وقد اشتهر حتى هذه المرحلة، ولم يكن تجاوز العشرين عامًا، بأنه من أنجب طلاب هذه المدرسة وأذكاهم، وأنه يتحلى بحسن السلوك ومتانة الإيمان. لقد درس كثيرًا فى المدرسة المسيحية دراسة متعمقة[٢]، ثم فى المدرسة الوثنية، حتى أصبح علامة عصره فى حقائق الديانة المسيحية، وأصبح جديرًا بتولى منصب إدارة مدرسة الإسكندرية؛ وبكل ما لديه من علم بدأ فى العمل على تطوير مناهج الدراسة فى المدرسة.

يقول المؤرخ يوسابيوس: ولما رأى أورجين أن الطلبة الذين تولى أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، رأى أن استمراره فى تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتناسب مع تدريس العلوم الدينية[٣]، ولذلك ترك أفكار المدرسة الوثنية الفلسفية واعتبرها سحابة تحجب الأنوار الساطعة التى يقدمها عالم اللاهوت[٤].

تعلم أورجين اللغة العبرية وترجم التوراة ووضع شروحًا لأسفارها وأتى الناس إليه من كل فج عميق ليتعلموا على يديه، وأرسلت الأمم فى طلبه ليرشدهم إلى طريق الخلاص، وذهب إلى بلاد العرب ودرس فى مدينة بصرى وزار روما عام ٢١٢م، ولما عاد إلى الإسكندرية نجح أعداؤه فى إثارة

---

(١) Hardy, Christian Egypt., New York, 1952, p. 13.

(٢) Eusebius, Op. Cit., p. 258 - 9.

(٣) Eusebus, Op. Cit., p. 259 - 60.

(٤) Hardy, Op. Cit., pp. 14 - 15.

الإمبراطورية عليه للجأ إلى فلسطين، فاستقبله أسقفا بيت المقدس وقيسارية بالترحاب، وسمحا له بالوعظ التدريسي في كنائسها بصفة استثنائية، وقد جلب ذلك المتاعب إليه، حتى إنه حُرِمَ من رحمة الكنيسة، وفي مرحلة من مراحل الاضطهاد التي سادت البلاد، وكان ذلك في أواخر حياة أورجين قبض عليه عام ٢٥٠م، وسجن وعذب، ولم يفرج عنه إلا عندما ساءت حالته الصحية، ثم مات بعد قليل في عام ٢٥٣م[1].

ومن علماء الإسكندرية الذين تولوا إدارة مدرستها ديديموس الضرير Didymus The Blind؛ وقد ولد في الإسكندرية عام ٣١٣م وهي السنة التي توقف فيها الاضطهاد ضد المسيحية بعد صدور مرسوم ميلان؛ وقد فقد بصره وهو في حوالي الرابعة من عمره؛ فاستعان بذاكرته وحفظ كل ما كان يسمعه، وقد تمكن من إتقان كثير من العلوم، وألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والفلسفة، بالإضافة إلى العلوم اللاهوتية.

ولم يتردد البطريرك أثناثيوس Athanasius في إسناد مسئولية المدرسة اللاهوتية له لذكائه وقدرته على الاستيعاب، ودقة ملاحظته وعلو حجته؛ ويلاحظ أن ديديموس كان من أواخر أشهر مدرائها؛ فقد أفل نجم الإسكندرية من بعده. ومن تلاميذه القديس جيروم Jerome وريفينوس Rifinus. وقد أكد جيروم على علو شأن ديديموس وقدرته على التعليم وأثره الكبير في علم اللاهوت في الشرق والغرب، وخلال هذه المرحلة كانت حركة الصراع بين الأثناسيوسية والأريوسية على أشدها، وكان التدريس محاطًا بالمشكلات من كل جانب خاصة بسبب تدخل الحكام المدنيين ضد الإثناسيوسية مما عرض بعضهم للنفي والاضطهاد، وقد صمد ديديموس في وجه هذه التيارات كلها، وجاهد بكل قوته ضد الأباطرة الذين ناصروا الأريوسية، كما حارب الوثنية التي بقيت متمثلة في الأفلاطونية الحديثة.

---

(1) Eusebius, Op. Cit., pp. 237, 255.

وبوصف ديديموس بأنه كان مناضلاً شريفًا مهذبًا ضد أعداء المسيحية، وركز جهوده فى إقناعهم بقبولها.

كما اتصف بروح الاعتدال فى منهجه؛ ومن أجل ذلك جاء إليه الجميع بكل طوائفهم ودياناتهم وفلسفتهم يطلبون العلم فى مدرسته وعلى يديه، وذاع صيت ديديموس فى الأنحاء كلها، ومدحه القديس أنطونيوس والقديس جيروم وافتخر الأخير بأنه أحد تلاميذه، واتخذه من منهجه قدوة لتدريس الكتاب المقدس، كما ترجم له أحد كتبه المتعلقة بروح القدس، وفى الوقت نفسه كان ديديموس سندًا للبطريرك أثناسيوس وحصنًا قويًا للكنيسة المصرية تحطمت عليه الأريوسية بعد أن فند أخطائها جميعًا ومن مؤلفات ديديموس الكثيرة نذكر شرح أسفار إشعيا، وزكريا، وأيوب والأمثال ورسائل الجامعة كلها وله ثلاثة كتب عن الثالوث، وتعليق على مؤلفات أوريجين وغير ذلك. وقد تأثر تفكيره وأسلوبه كثيرًا بالقديس أثناسيوس، والحقيقة أنه قد نجح كثيرًا فى أن يعيد لمدرسة الإسكندرية مجدها الذى عاشته أيام كلمنت وأوريجين، وقد استمر فى منصبه حتى وفاته فى عام ٣٩٨م[1].

أما عن العلاقة بين المدرستين المسيحية والوثنية، فالواقع أن المدرسة الوثنية كانت قد بلغت قمتها فى العلوم والفلسفة فى القرون الأولى للمسيحية، ولم يكن يعادلها فى القيمة العلمية أية مدرسة فى العالم تقوم بتدريس العلوم الطبيعية والطب والرياضيات والفلك؛ وكانت المدرسة اليونانية المتمثلة فى أثينا قد تميزت بالدراسات الفلسفية المستقلة بعضها عن بعض على العكس من مدرسة الإسكندرية الوثنية التى جمعت هذه الفلسفات كلها معًا، وتدارسها الطلاب الذين اجتمعوا فى أروقتها، كما أن مدرسة الإسكندرية أنشأت الأفلاطونية الحديثة وترعرعت فيها الغنوصية.

---

[1] متى المسكين : القديس إثناسيوس الرسولى -وادى النطرون - ١٩٨١م، ص ١٩١.

ومن هنا كانت مدرسة الإسكندرية الوثنية منافسًا قويًا لمدرسة الإسكندرية المسيحية الناشئة[1].

وعلى الرغم من هذا كله عاشت المدرستان الوثنية والمسيحية جنبًا إلى جنب لكل منهما طابعها العلمي، وعكستا الحالة الثقافية لمدينة الإسكندرية، وقد أثرت كل منهما بالأخرى وتأثرت، ولكن هدف التعليم كان مختلفًا تمامًا في المدرستين؛ فالتعليم في المدرسة الوثنية كان بقصد الإعداد لتولي المناصب الحكومية، بينما كان من أهداف التعليم في المدرسة المسيحية التعمق في الفكر المسيحي بصرف النظر عن الوظائف، وكانت الحياة الفاضلة من أبرز خواصها.

وهناك فارق آخر بين المدرستين هو أن طلاب المدرسة الوثنية كانوا ذكورًا فقط ومن مستوى اجتماعي رفيع، بينما كان التعليم في المدرسة المسيحية مفتوحًا للمواطنين جميعًا لا فرق بين غني وفقير أو ذكر أو أنثى بالإضافة إلى الفلاسفة الوثنيين والمهرطقين، ولذلك كانت المنافسة قوية، وأدت إلى ازدهار العلوم والفلسفة وعلوم الدين.

وكان من مزايا المدرسة المسيحية تعديل برامجها التعليمية كلما دعت الحاجة إلى مواكبة العصر، وحتى لا يشعر طلابها بأي نقص في أي نوع من أنواع العلوم أو المعارف، وطوعت العلوم الفلسفية لتكون خادمة للاهوت، وعلى المسيحي أن يزود نفسه بأنواع المعرفة كلها، ومن هنا ارتقت دراسة الفلسفة في المدرسة المسيحية حتى إن كثيرًا من الفلاسفة الوثنيين وغيرهم ومنهم بلوتارخ Pluutarch كانوا من طلاب هذه المدرسة[2].

وإذا انتقلنا من مصر إلى الساحل السوري أو الساحل الشامي نجد عدة

---

[1] أمين الخولي وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية - مكتبة مصر - (د.ت)، ج٢، ص ٢٤٢.

[2] Eusebius, Op, Cit., p. 242.

مدن ساحلية كانت مراكز حضارية أشعت على المنطقة بأسرها، ومن هذه المدن غزة التى تقع إلى الجنوب على الساحل وأقرب المدن الشامية إلى مصر.

ولعل ما ساعد على ظهور هذه المدينة على الساحة الفكرية أن مدينة بيت المقدس كانت لا تزال تعانى من التخريب الذى لحق بها عام ٧٠م[١]. ومن الذين نبغوا فى المدينة المؤرخ زوسيموس Zosimus؛ وهو مؤرخ وثنى ولد فى قرية بيت ايل بجوار مدينة غزة، ومن أشهر ما كتبه كتاب التاريخ الجديد Historia Nova، وقد سجل فى هذا الكتاب الأحداث التى تبدأ من عصر الإمبراطور أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤م) حتى عام ٤١٠م.

مع بعض التفاصيل عن مصر الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤- ٣٠٥م)[٢]، وأهدى زوسيموس هذا الكتاب إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodsius II (٤٠٨ - ٤٥٠م)؛ وقد اعتمد فى كتابه على من سبقوه من المؤرخين مثل يونابيوس Eunapius والمؤرخ المصرى الطبيب أوليمبيودورس Olympiodorus[٣].

وتكلم زوسيموس عن الإمبراطور ثيدوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥م) عندما وصل إلى روما، وأعلن تعيين ابنه هونوريوس Honorius إمبراطور على غرب أوربا (٣٩٥ - ٤٢٣م) ومقره مدينة روما، كما ذكر أنه عين القائد الجرمانى ستيلكو Stilicho قائدا لقوات الإمبراطورية فى غرب الإمبراطورية، وأن الإمبراطور ترك ابنه تحت رعايته.

كما أن كتابات زوسيموس توضح معرفته بمدينة غزة وضواحيها، ولعل أهم ما يدونه زوسيموس حديثه عن تنظيمات الجيش البيزنطى؛ فقد ذكر أن الجيش كان يتكون من جزئين رئيسيين؛ الأول وهو العناصر المتحركة، والثانى

---

(١) Josephus, The Jewish War, penguin, 1969, pp. 276 ff.

(٢) Ostrogorsky, History of Byzantinestate, Oxford, 1956, p. 22.

(٣) Bury, History of The Later Roman Empire, New York, 1954, p. 417.

قوات الحدود، وأضاف أن القوات البيزنطية الشرقية كانت تتكون من حوالى مائة ألف إلى مائة وخمسين ألف جندى وأشار أيضًا إلى أن الإمبراطورية لم يكن لديها سياسة عسكرية ثابتة. ويلاحظ أن زوسيموس لم يتحدث عن حملات الإمبراطورية على إيطاليا التى وقعت فى عامى ٤٠٢ و٤٠٣م، وأنه انتقل من عام ٣٩٧ إلى عام ٤٠٥م[١].

والحقيقة أن شهرة مدينة غزة فى تلك المرحلة تعود بصورة رئيسة إلى مدرسة البلاغة التى ازدهرت فى المدينة فى القرن الخامس وأوائل السادس الميلادى. وواقع الحال أن مدرسة غزة قد تأثرت كثيرًا بجو مدرسة الإسكندرية العلمى، كما كانت مدرسة غزة تتبادل البعثات الطلابية مع المراكز العلمية فى مصر والشام كالإسكندرية ومدينة أيسارية القريبة منها.

ولم تقتصر البعثات على الطلاب فقط؛ بل شملت الأساتذة أيضًا، وكان بعض الأساتذة فى مدرسة غزة من الأفلاطونيين الحديثين، ولكن الأكثرية منهم دعوا أنفسهم بالسفطائيين المسيحيين، وكانت معظم مؤلفاتهم تتضمن شروحًا للتوراة ورسائل ضد غير المسيحيين.

ويلاحظ أن مدينة غزة لم تشترك كثيرًا فى الخلافات الكنسية التى ظهرت بسبب المذاهب الفكرية التى سادت تلك المرحلة؛ ويأتى على رأس هؤلاء العلماء بروكوبيوس الغزاوى Procopius وخوريسيوس الغزاوى Choricius[٢].

ومن الفلاسفة الوثنيين الذين اشتهروا فى غزة بورفيرى الغزاوى Prophyry of Gaza وقد ولد فى مدينة سالونيك عام ٣٤٧م ومات حوالى عام ٤٢٠م. وعندما بلغ الخامسة والأربعين من عمره أصبح قسيسًا فى مدينة غزة، ثم أصبح بعد ثلاث سنوات أسقفًا للمدينة وبقى لمدة خمسة وعشرين عامًا فى هذا المنصب، وعلى الرغم من أنه من مواليد سالونيك و كان له أخوة صغار وأنه

---

(١) Mango Cyril, Byzantium, 1980, p. 34, Bury, Op. Cit., p. 160 - 301.

(٢) فليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، بيروت ١٩٥٨م، ج ١، ص ٢٩٨ – ٣٩٩.

ورث من والده قدرًا كبيرًا من المال، إلا إنه غادر مسقط رأسه ونسب إلى مدينة غزة وعرف باسم بروفيرى الغزاوى.

وهو يعتبر من قادة الأفلاطونية الحديثة، وقد شن بروفيروى حملة شعواء على المسيحية كما أوضحها يوسابيوس القيسارى، كما أنه أشار إلى أوريجين وهاجمه بضراوة، وسجل أن آراءه تتعارض مع القوانين[1].

وإذا انتقلنا من مدينة غزة إلى الشمال على الساحل الفلسطينى نجد مركزًا ثقافيًا آخر هو مدينة قيسارية، وترجع شهرة هذه المدينة فى تلك المرحلة إلى مدرستها المسيحية اللاهوتية، ومن المعروف أن أوروجين قد زار هذه المدينة وألقى فيها عددًا من الدروس والعظات واستقبل استقبالاً حسنًا من رجال الدين فيها ورسموه كاهنًا[2].

ويبدو أن ما فعله أوروجين كان نواة لمدرستها اللاهوتية، ومن الذين درسوا فى هذه المدرسة جريجورى ثورماتورجس Thaumaturgus الكابادوكى الأصل الذى حضر إلى بيروت ودرس فيها أولاً ثم اتجه إلى قيسارية حيث درس على يد أوريجين ثم اعتنق المسيحية بتأثير أستاذه[3].

ومن مشاهير هذه المدينة بامفليوس Pamphilus؛ وهو من مواليد مدينة بيروت عام ٢٤٠م، وقد درس فى مدرسة الإسكندرية، ثم قضى بقية عمره فى مدينة قيسارية حيث عين أستاذًا للمدينة، وقد درس فى مدرسة المدينة، وجمع عددًا كبيرًا من الكتب، وقام بدراسات مهمة على الإنجيل، وقد قبض عليه وسجن؛ وخلال فترة سجنه كتب رسالة دفاع عن أوريجين وقد استشهد بامفليوس ومجموعة من زملائه لتمسكه بالديانة المسيحية فى عام ٣٠٩م[4].

---

(1) Mango, Cyril, Op. Cit., p. 40.

(2) Eusebius, Op. Cit., p. 263.

(3) لبيب حتى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٩.

(4) Altwater, Op. Cit., p. 263 - 4.

ومن علماء مدينة قيسارية يوسابيوس القيسارى Eusebius؛ ولد ولد فى هذه المدينة حوالى عام ٢٦٠م، وكان فى شبابه مريدًا وتابعًا وصديقًا حميمًا لأستاذ بامفيليوس الذى ذاع صيته فى تلك المرحلة، وقد ظل يوسابيوس ملازمًا لأستاذه حتى قبض عليهما بتهمة اعتناق الديانة المسيحية والدفاع عنها وظلا فى السجن معًا حتى عام ٣٠٩م حيث استشهد بامفيليوس؛ وكان لهذا الحدث أثر كبير على يوسابيوس، وعندما أطلق سراحه ذهب إلى مدينة صور وسمى نفسه يوسابيوس بن بامفليوس تكريمًا لأستاذه، وقد كتب كتابًا خاصًا للدفاع عن أوريجين، ثم كتب كتابًا آخر عن حياة أستاذه بامفليوس وقد فقد الكتاب الأخير[1].

ورحل يوسابيوس من صور إلى الإسكندرية فى عام ٣١١م، وقد قبض عليه مرة أخرى وأودع السجن، وعندما أفرج عنه عاد إلى فلسطين فى العام التالى، ثم ما لبث أن اعترف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية، وفى عام ٣١٤م أصبح أسقفًا لمدينة قيسارية، وظل فى هذا المنصب حتى مات عام ٣٣٩م أو ٣٤٠م.

وأثناء إقامة يوسابيوس فى قيسارية فى المرحلة الأخيرة، رحل إلى بيت المقدس وأطلع على الكتب الموجودة فى مكتبة المدينة التى أسسها الأسقف الإسكندر، وقد اهتم يوسابيوس بالإمبراطور قسطنطين منذ تعيينه إمبراطورًا، كما اهتم بالنزاع الدينى الذى دار بين أثناسيوس وآريوس.

وفى مجمع نيقية الذى ترأسه الإمبراطور قسطنطين -الذى عقد فى عام ٣٢٥م- جلس يوسابيوس إلى جانب الإمبراطور، وحاول التوفيق بين آراء آريوس وأثناسيوس، ولكنه أدان فى النهاية آريوس بشدة وناصر أثناسيوس، وكان يوسابيوس مناصرًا شديدًا للإمبراطور قسطنطين، وكان الإمبراطور يعرف

---

(1) Eusebius, Op. Cit, pp. 11 - 12.

ذلك تمامًا، وقد عرض عليه الإمبراطور منصب رئيس أساقفة القسطنطينية، أو منصب أسقف مدينة أنطاكية ولكن يوسابيوس اعتذر عن القبول بكل تواضع[1].

وحقيقة الأمر أن يوسابيوس كان على معرفة بعلوم زمانه؛ فدرس تاريخ الوثنية، وتاريخ الشرق القديم، والجغرافيا، والفلسفة والفلك، وقدم شروحًا لأسفار إشعيا والمزامير، وكان فصيحًا بليغًا، وكتب يوسابيوس كثيرًا من المصنفات التى اعترفت بها الطوائف المسيحية كلها على اختلاف مذاهبها؛ ومما كتبه مصنف عن حياة الإمبراطور قسطنطين، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التى تناولت حياة قسطنطين، كما وضع كتابًا آخر يعرف باسم "الإعداد أو التحضير" ليظهر من خلاله أباطيل الوثنية، كما كتب "البرهان الإنجيلى" ليدافع به عن المسيحيين ضد مزاعم اليهود، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة من أهم الكتب التى سجلها سطرها يوسابيوس واستحق عليه أن يسمى شيخ رجال الكنيسة.

ولقد سجل فى هذا الكتاب جميع الأحداث التى تلت ما ورد فى العهد الجديد، وفيه صور الاضطهاد الذى حل بالمسيحيين، كما سجل لنا العقاب الإلهى الذى وقع على كل من اضطهدهم بدءًا باليهود مرورًا بالأباطرة الرومان والبيزنطين، ويعتبر كتاب تاريخ الكنيسة هذا المصدر الرئيس لتاريخ الكنيسة منذ أيامها حتى عصر مؤلفه[2].

وفى مدينة قيسارية ظهر مؤرخ آخر هو بروكوبيوس Procopius الذى أرخ للفترة الزمنية التى حكمها الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ - ٥٦٥م)، ودون الأعمال العظيمة التى قام بها القائد البيزنطى بلزاريوس Belisarius فى الشرق والغرب، ولقد ولد بروكوبيوس فى نهاية القرن الخامس الميلادى فى مدينة قيسارية، أما تعليمه وسنى حياته الأولى فنحن لا نعرف عنها شيئًا، والمعروف أنه درس ليؤهل نفسه لوظيفة قانونية، لقد غادر مسقط رأسه وهو شاب صغير إلى مدينة القسطنطينية.

---

(1) Ibid, pp. 11 - 13.

(2) Eusebius, Op. Cit., pp. 7 - 8.

وقد ظهر نبوغه فى فترة مبكرة من حياته، ففى عام ٥٢٧م عين مستشارًا قانونيًا وسكرتيرًا خاصًا للقائد البيزنطى الشهير بلزاريوس، ومع بلزاريوس أصبح بروكوبيوس قريبًا من السلطة والبلاط وعرف أسرار القصر وخبايا الحكم، ومن هذا الموقع أصبح للمؤرخ بروكوبيوس رؤية مهمة لتقديم مؤلفاته التاريخية التى امتدت حتى نهاية عصر الإمبراطور جستنيان[1].

وخلال حياة بلزاريوس وحملاته فى أفريقيا وإيطاليا والشرق كان بروكوبيوس يكاد يلازمه فى هذه الحملات كلها، وأصبح شاهد عيان على الأحداث التى دونها فى مؤلفاته؛ فقد صاحب بروكوبيوس القائد بلزاريوس فى حملاته العسكرية التى دارت فى عام ٥٢٧م ضد الفرس فى أعالى العراق.

وفى عام ٥٣٣م ذهب مع القوات البيزنطية التى قادها بلزاريوس ضد الوندال فى شمال إفريقيا، ورحل معه إلى إيطاليا فى عام ٥٣٦م لمحاربة القوط الشرقيين، وبذلك أصبح بروكوبيوس أفضل من يكتب عن تاريخ هذه الفترة وأسرارها.

وإلى جانب صداقته للقائد بلزاريوس كان على إطلاع دائم وواسع بكل ما يجرى داخل القصر الإمبراطورى، وقريبًا من جميع القادة الذين عاصروه، سواء أكانوا بيزنطيين أم أجانب، وبكل تنظيمات الإمبراطورية وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، ولعل هذا يدفعنا إلى القول بأن بروكوبيوس سوف يقدم لنا تاريخًا متكاملاً عن أحوال الإمبراطورية يمدح فيه ولى نعمته القائد بلزاريوس والإمبراطور جستنيان ولكننا نلاحظ أنه قدم لنا عكس ذلك فى بعض الأحيان.

لقد قدم لنا بروكوبيوس فى تاريخه هذا وجهات نظر ثلاث، حتى إن القارئ يجد بعض الصعوبة فى التعامل معها، إن عمله الكبير تناول تاريخ الحروب التى خاضتها الإمبراطورية فى آسيا وإفريقيا وأوروبا فى سبعة كتب، ونلاحظ أن الأحداث لم ترد فيها مرتبة زمنيًا؛ فقد تداخلت الأحداث بعضها فى بعض؛ فبينما يتحدث عن حرب نجده يتكلم عن حرب ثانية وربما ثالثة.

---

(1) Procopius, the Porsian War, London, 1961, pp. 11.

لقد اختص الكتابين الأول والثانى بالحروب الفارسية، وتناول الثالث الحرب ضد الوندال فى شمال إفريقيا، والرابع والخامس عن الحروب التى دارت ضد القوط فى إيطاليا، والحقيقة الماثلة أمامنا أن الإمبراطورية البيزنطية قد بذلت أقصى جهودها لاستعادة حدودها القديمة والأراضى التى استولى عليها البرابرة.

وكان الإمبراطور جستنيان تواقًا لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية باعتباره وريثًا لها، وتصبح الإمبراطورية هى أكبر القوى العالمية مرة أخرى، وقد تسبب ذلك فى استهلاك موارد الدولة، ولكن عجلة التاريخ لم تعد إلى الوراء[1].

ويلاحظ أن الأحداث التى وقعت فى عصر الإمبراطور جستنيان كانت كثيرة للغاية ومعقدة بدرجة كبيرة، وأن ما سجله بروكوبيوس لا يزيد عن كونه تلخيصًا لأحداث عصره، أما عن تداخل الأحداث فإننا عندما نقرأ عن الحرب الفارسية نقرأ أيضًا داخل هذه الأحداث عن ثورة نيقا Nika التى وقعت فى عام ٥٣٢م، والشىء نفسه عن الطاعون الذى أطاح بالمواطنين عام ٥٤٠م، وإن كان ذلك يعتبر عيبًا من وجهة نظر المؤرخين، إلا إنه يوضح لنا حرص بروكوبيوس على تسجيل الأحداث التى وقعت فى عصره[2].

وبعد كتب الحروب التى سجلها بروكوبيوس، يقدم لنا كتابًا عرف باسم التاريخ السرى أو النوادر Anecdota؛ وفى هذا الكتاب نجده وقد حرر نفسه من الخوف وجلس يكتب بكل حرية بعيدًا عن الجمود وعن التاريخ وواقعية السياسة؛ لقد هاجم فى هذا الكتاب الإمبراطور والإمبراطورة وصديقه بلزاريوس وزوجته دون رحمة، وقدم لنا صورة قاتمة كانت مشرقة فى كتبه الأولى.

ويرى بعض الدارسين فى أيام بروكوبيوس بهذا العمل جريمة وعارًا لا

---

(١) Procopius, Op. Cit., I, p. IX

(٢) Ibid, I, P. X-XI.

مبرر له وفضيحة للحياة الخاصة، ويرون أيضًا أن ما كتبه بعيدٌ عن الواقع ولا يمكن تصديقه؛ وقدم لنا بروكوبيوس كتابًا عن العمارة سجل فيه ما بناه الإمبراطور دون إطراء، وهو ينقسم إلى ستة أقسام صغيرة قدم فيها ما شيده الإمبراطور جستنيان من المباني العامة طوال فترة حكمه في جميع نواحي الإمبراطورية، وقد تم اختيار الموضوعات بعناية كبيرة، وتقدم لنا جانبًا حضاريًا في غاية الأهمية[1].

وقدم لنا بروكوبيوس هذا كله في أسلوب واضح وبسيط يوضح لنا معرفته بفنون البلاغة، لقد كان بروكوبيوس معجبًا بالكتاب الكلاسيكيين؛ ومن هؤلاء هيرودوت وثوكيديدس Thucydides، واستعار بعض تعبيراتهم في كتاباته.

لقد كتب بروكوبيوس كمؤرخ مسيحي، ولكنه كان متعاطفًا مع الديانات الأخرى خاصة اليونانية القديمة؛ ومما لا شك فيه أن دراساته للكتب الكلاسيكية قد أثرت فيه كثيرًا.

وتوفي بروكوبيوس بعد الإمبراطور جستنيان بقليل، ويقال إنه توفي في العام نفسه الذي توفي فيه الإمبراطور أي عام ٥٦٥م[2]. ومن المراكز الثقافية على الساحل السوري مدينة بيروت، وكانت قد أصبحت منذ أوائل القرن الثالث الميلادي مركزًا لتعليم القوانين ونشرها، ويرجع ذلك إلى أنه كان للمدينة مكانة تجارية واسعة وحركة مالية كبيرة بحكم موقعها الجغرافي ومرفأها.

وقد ترتب على ذلك خلافات قانونية حول هذه المسائل التجارية، وإقامة دعاوى قانونية استهوت كبار المحامين وأشهر الأساتذة الأمر الذي ترتب عليه إقامة مدرسة للحقوق، لتخريج الكوادر اللازمة لمثل هذه الأعمال.

وقد جذب ذلك الشباب الطموحين وممن تتوفر لهم علاقات اجتماعية

---

(1) Procopius, Op.Cit.,I, p. XI.

(2) Procopius, Op. Cit, I, p. XIII.

مفيدة، فقد كان القانون أكثر المهن تبشيرًا بالنجاح، وكان بإمكان المحامى الذى يعمل لحسابه الخاص أن يجمع مبالغ كبيرة من المال، وأن يصل إلى مركز اجتماعى مرموق، يضاف إلى ذلك أن دراسة القانون كانت أمرًا ذا أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة، لذلك لم يُسمح بتدريسه فى المعاهد الخاصة كما كان الحال من قبل، ولم يكن يوجد فى مصر أو بلاد الشام سوى مدرسة واحدة مشهورة للحقوق هى مدرسة بيروت.

وقد بلغت مدرسة الحقوق فى بيروت قمة ازدهارها فى القرن الخامس الميلادى عندما جذبت إليها جماعة من خيرة المفكرين الشبان فى الإمبراطورية، ولم تكن مدرسة القسطنطينية التى أسست عام ٤٢٥م تعتبر منافسة لها، وقد وردت أول إشارة إلى مدرسة الحقوق فى بيروت فى خطبة جريجورى تورماتورجوس التى ألقاها حوالى ٢٤٠م.

وكان قد أتى من كبادوكيا فى آسيا الصغرى ليدرس فى بيروت أولاً، وبعدها اتجه إلى قيسارية فلسطين حيث اعتنق المسيحية على يدى معلمه أوريجين السكندرى، ومن مشاهير هذه المدرسة أيضًا بامفليوس البيروتى[1].

وإلى جانب هؤلاء يوجد جريجورى نازيانزوس Nanzanzus (٣٢٩-٣٨٩م)، الذى يعتبر من أشهر رجال الدين فى عصره، وقد نال قسطًا كبيرًا من التعليم فى آسيا الصغرى ثم فى مدارس أثينا حوالى عام ٣٥٦م.

وأخيرًا فضل الإقامة فى بيروت لمتابعة دراسته القانونية، وفى عام ٣٦٢م أصبح كاهنًا وكان ذلك ضد رغبته، وفى عام ٣٧٢م أصبح أسقفًا، ثم تولى الأسقفية فى مدينة القسطنطينية عام ٣٨٠م، وقد انسحب من الحياة العامة وعاش بقية حياته بالقرب من مسقط رأسه فى كبادوكيا[2].

ومن أشهر هؤلاء شهرة سيفريوس بطريرك أنطاكية اليعقوبى (٥١٢ -

---

(1) Attwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

(2) Ibid, pp. 160 - 1.

٥١٨م) الذى هرب من المدينة بعدما هددته السلطات بقطع لسانه لجرأته فى الحديث، والذى وصفه بطريرك الإسكندرية ثيودوسيوس بأنه صخرة السيد المسيح، وحارس الإيمان السليم الذى لا يهتز[١].

وكانت مدة الدراسة فى مدرسة الحقوق أربع سنوات، ثم أضاف إليها الإمبراطور جستنيان فى العام الأول لتوليه الحكم (٥٢٧م) سنة خامسة -وكان الطلاب المقيدون بها يعفون من الخدمة العسكرية حتى سن الخامسة والعشرين[٢].

وكان الالتحاق بالمدرسة يتطلب دراسة تمهيدية فى اللغة اليونانية واللاتينية وفى الخطابة، وكان الطلاب يحصلون ذلك فى مدنهم أو فى مدرسة بيروت، وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب؛ فيقبل الطلاب بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، ويستثنى من ذلك الطلاب العرب[٣].

وفى السنة الاولى كان الطالب يدرس مجموعات القوانين لجايوس Gaius وأولبيان Ulpian، وفى السنة الثانية يدرس قوانين أخرى لأولبيان، ثم ينتقل إلى كتابات بابنيان Papinian، ثم كتابات باولس Paubus فى السنة الرابعة، أما السنة الخامسة فكانت لدراسة الدساتير أو القرارات الإمبراطورية التى جمعت فى نهاية القرن الثالث الميلادى[٤].

وكان بالمدرسة جمعيات اهتمت بعلوم الغيب والسحر، وجمعية أخرى مسيحية، كانت تجتمع كل مساء فى الكنيسة لدراسة المؤلفات الدينية. كما كانت

---

(١) Zachariah of Mitylene, The Syriac Chronicle, tran Hamilton, London, 1899, pp. 190 - 283.

(٢) فليب حتى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٩.

(٣) Attwater, Op. Cit., pp. 263 - 4.

(٤) دواتى : أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس، بيروت ١٩٦٨م، ص ١١٠.

الدراسة تعطل بعد ظهر كل يوم سبت وطوال نهار الأحد، أما ساعات المساء فقد كانت خالية من الدروس ليتمكن الطلاب من استيعاب ما درسوه أثناء النهار[1].

وقد لمعت في القرون المسيحية الأولى طائفة من أساتذة القانون واستحقوا أن يطلق عليهم لقب أساتذة العالم؛ واشتهرت بيروت بفضل هؤلاء ورفعت إلى مستوى الحواضر، وسميت بأسماء كثيرة مثل أم العلوم، ومواطن العلماء، ومنبع الشرائع، وزاد من شرف الأساتذة أن أصبحوا يعينون في المدرسة بموجب مرسوم يوافق عليه مجلس شيوخ المدينة، واشترط الإمبراطور جوليان Jolian (٣٦١ - ٣٦٣م) أن يعرض عليه المرسوم قبل التنفيذ.

ومنذ عام ٤٢٥م أصبحت الدولة تتولى نفقات الأساتذة جميعًا وتوافد الطلاب على مدرسة بيروت من جهات العالم كلها مثل غزة، وعسقلان، وأنطاكية، والرها، وسميساط ومدن الشام وفلسطين كلها وغير هؤلاء من مصر وأسبانيا وإيطاليا والبلقان وآسيا الصغرى[2].

وقد ظلت المدرسة تمارس نشاطها حتى نهاية النصف الأول من القرن السادس الميلادي، حين داهمت المدينة سلسلة من الهزات الأرضية في الفترة من ٥٥١ إلى ٥٥٥م كانت تقضي عليها، وهدم الزلزال التي تعرضت له مدينة بيروت عام ٥٥١م، جانبًا كبيرًا من مبانيها[3].

فانتقلت المدرسة إلى مدينة صيدا لبعض الوقت، وفي عام ٥٦٠م تم إقامة المدرسة مرة أخرى، وقبل حفل الافتتاح بقليل شبت النيران فيها وأتت عليها، ولم يعد يذكر عن المدرسة شيء بعد ذلك[4].

ومن ذلك يتضح أن مدينة بيروت بفضل مدرستها القانونية قد شهدت نهضة علمية كبرى أثرت قوانين الإمبراطورية البيزنطية، فقد علّم في تلك

---

(1) أسد رستم : الروم، ج١، ص ١٥٨.

(2) أسد رستم : الروم، ج١، ص ١٥٨.

(3) Antonus Martyr, Theo Holy Plaees, in P.P.T.S. London, 1890, Vol. 3, p. 2.

(4) فليب حتى : المصدر السابق، ج١، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

المدرسة أكبر أساتذة القانون فى تلك الحقبة وأشهرهم، كما تتلمذ فيها كبار رجال الفكر الذين أتوا إليها من أنحاء آسيا وأوربا وإفريقيا كلها وكانت مركزًا حضاريًا أشع على المنطقة بأسرها.

وإذا تحركنا من بيروت إلى الشمال نجد مدينة أنطاكية، وهى المركز الثقافي الأخير في هذا البحث، وسوف نتعرض لثلاث شخصيات كان لها أكبر الأثر على الفكر المعاصر في المنطقة، وربما استمر هذا الأثر حتى الآن، وأولى هذه الشخصيات المؤرخ أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus والثانى هو المفكر الوثني ليبانيوس Libanius، والثالث المفكر المسيحى يوحنا فم الذهب John Chysostom ومعلوماتنا عن المؤرخ أميانوس مارسلينووس (٣٣٠ – ٤١٠م) مستمدة تقريبًا من كتاباته؛ فقد ولد فى عام ٣٣٠م فى مدينة أنطاكية لعائلة يونانية وثنية.

وتلقى تعليمه فى المراحل الأولى فى مدينة أنطاكية نفسها التى تعتبر من المدن الرئيسة فى الإمبراطورية الرومانية، وكان أميانوس يفتخر بمدينته التى اجتمعت فيها أخلاط الناس من يونانيين ويهود وسوريين وآخرين جمعهم عز المدينة وثراؤها، وقد أطلق أميانوس على مدينته لقب تاج الشرق الجميل [1].

وقد عاصر أميانوس مجموعة من الأباطرة البيزنطيين هم قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ – ٣٦١م) وجوليان المرتد وجوفيان Jovian (٣٦٣ – ٣٦٤م) وفالنز Valens (٣٦٤ – ٣٧٨م)، وكان نجم الإمبراطورية قد أخذ فى الأفول، وكانت نقطة التحول هى الكارثة التى حلت بالإمبراطورية بعد هزيمة قواتها فى معركة أدرنة Adrianople عام ٣٧٨م على أيدى القوط، ولقى فيها الإمبراطور فالنز مصرعه، وهى المرحلة التى تقف فيها كتابه المعروف باسم التواريخ The Histories.

---

(1) Ammiamus Marcellinus, Rerum Gestarum, rran, Rolff, 11, 251. Creat Britain, 1971, Vol. 11, p. 251.

لقد التحق أميانوس فى شبابه بالسلك العسكرى الإمبراطورى وأصبح أحد القادة المهمين، وقد رافق الإمبراطور جوليان فى بعض عملياته العسكرية فى الشرق والغرب، وقد مكنت هذه الانتقالات أميانوس من الاطلاع على بواطن الأمور داخل الإمبراطورية، وأسرار البلاط والدولة، وأسباب المعارك التى خاضتها الإمبراطورية فى آسيا وأوربا خاصة ضد الفرس والعناصر الجرمانية ونتائجها.

وفى عام ٣٦٣م، وبعد موت الإمبراطور جوليان عاد أمانيوس مع قواته إلى أنطاكية، وظل بها حتى معركة أدرنة (٣٧٨م)، وقد زار أمانيوس خلال هذه الفترة مدينة الإسكندرية، وبلاد اليونان و إيطاليا خاصة مدينة روما، وأثناء إقامته فى أنطاكية اطلع على كثير من الكتب التاريخية، وربما شغله منصبه فى بداية الأمر بعض الوقت عن القراءة، لكنه خصص الفترة الأخيرة من حياته للدراسة والكتابة، وممن قرأ لهم وتأثر بهم تاكيتوس Tacitus وليفى Livy، وما كتبه أمانيوس يعتبر مكملاً لكتاب تاكيتوس الذى انتهى فى عام ١٢٠م[1].

وقد بدأ أمانيوس كتابة مؤلفاته فى مدينة روما، وعلى الرغم من أنه كان وثنيًا إلا إنه كان معتدلاً فى موقفه من المسيحية، ولم يؤثر ذلك على كتاباته ونظرته الموضوعية للأحداث، والمؤلف الذى قدمه أمانيوس يتناول الفترة من ٩٦ إلى ٣٧٨م، وهو مقسم إلى واحد وثلاثين فصلاً، وقد فقد من الكتاب جزءًا يبدأ من الفصل الأول حتى الفصل الثالث والعشرين، ولم يتبق إلا الأجزاء الأخيرة التى تشمل الفترة من ٣٥٣ إلى ٣٧٨م وقد سجل أمانيوس مؤلفه بلغة لاتينية فصيحة، ويعتبر كتابه من المصادر التاريخية المهمة للحقبة التاريخية التى سجل لها.

ومن علماء مدينة إنطاكية ليبانيوس (٣١٤ - ٣٩٣م) الفيلسوف والبليغ

---

(1) Tacitus, The Agricols and Germaniam Penguin, 1970, p. 10.

الوثنى، وقد ولد فى بيت وثنى مشهور فى المدينة ينحدر من بيت علمى تفوق أفراده لعدة أجيال سابقة فى مجال العلوم والثقافة والخدمة العامة للمدينة، وقد تم ليبانيوس دراسته الكلاسيكية الأولى فى مسقط رأسه، وعندما بلغ عامه الثانى والعشرين رحل إلى أثينا لاستكمال التحصيل العلمى، فقد كانت أثينا فى تلك المرحلة من أعظم مراكز الدراسات العليا فى الفلسفة والآداب فى العالم.

وقد قضى ليبانيوس أربع سنوات فى أثينا (٣٣٦ - ٣٤٠م)، سافر بعدها إلى القسطنطينية، وبدأ بتعليم البلاغة، لكن المنافسة الشديدة بين الأساتذة دفعته إلى الرحيل إلى مدينة نيقية حيث درس لبعض الوقت، ثم رحل مرة أخرى فى عام ٣٤٦م إلى مدينة نيقوميدية حيث قضى خمس سنوات، ثم عاد مرة أخرى إلى القسطنطينية، فعمل بها عددًا من السنين، وفى عام ٣٥٤م عاد إلى مسقط رأسه أنطاكية بعد أن أصبحت له مكانة عالية فى عالم العلم، وتعرف على كثير من علماء عصره، كما حظى بشرف صداقة كبار الشخصيات فى الإمبراطورية والأباطرة[1].

وقد صدم ليبانيوس بعد عودته إلى أنطاكية، لأن المسيحيين كانوا يرفضون إرسال أبنائهم ليتعلموا على أيدى المدرسين الوثنيين، بعد أن نعمت المسيحية وساندتها الحكومة الإمبراطورية.

وقد اهتم ليبانيوس بعد عودته إلى أنطاكية بكتابة أهم أعماله وأكثرها شهرة وهو كتاب مديح أنطاكية أو الإنطاكية Antiochikos، وقد أعد ليبانيوس كتابه هذا لتلقى كلماته فى الاحتفال بالألعاب الأوليمبية عام ٣٥٦م، وهو الاحتفال الذى كان يحضره كبار الشخصيات والزوار من أنحاء العالم كافة.

وفى الحقيقة أن الأنطاكية تاريخ للمدينة ومديح لها بصفتها مدينة يونانية وثنية تواجه نمو المسيحية، وقد اعتبر ليبانيوس أن بلاغة أنطاكية، أى بلاغة أصلها فضيلة من أهم فضائل المدينة، وكان يرى أن البلاغة عقل أى مدينة، وأن

---

[1] لويب حتى : المصدر السابق، ج١، ص ٣٩٣.

الثقافة اليونانية تعتبر معياراً للحضارة[1] ، لذلك لم يهتم بتعليم اللاتينية، وابتعد عن المسيحية وعدها عدوة للحضارة[2].

وتقدم لنا كتابات ليبانيوس، التي وصلتنا، ومعظمها من الخطب والرسائل، صورة واقعية للأزمنة والأمكنة التي عاش فيها، وتقدم لنا صورة طيبة للأساليب التربوية في مدارس أنطاكية؛ فقد كانت الدراسة تستمر طوال الشتاء والربيع، أما الصيف فكان يخصص للنشاط المرتبط بالاحتفالات والأعياد، وكانت الدروس تبدأ من الصباح حتى ظهر اليوم، وكان بعض التلاميذ في السادسة عشرة وكان التعليم العالي في أيدي البلغاء، وكان هؤلاء ينتخبون كأساتذة من مجلس شيوخ المدينة.

وكان هؤلاء البلغاء يعلمون ويخطبون ليكونوا مثالاً وقدوة للطلاب، وتقاضى هؤلاء البلغاء مرتباتهم من مجلس شيوخ المدينة ومن الطلاب، وقد شكلت العلوم الكلاسيكية اليونانية نواة المنهج الدراسي، ولم يدرس اللاتينية سوى من كان يرغب في الحصول على وظيفة حكومية[3] .

ويظهر تعصب ليبانيوس لمدينة أنطاكية الوثنية عندما اعتبر اللغة اليونانية والثقافة اليونانية معيار الانتماء للمدينة، وقد تناسى ليبانيوس عد عناصر أخرى تتتالى مع مفهوم المدينة اليونانية، كالعناصر السامية التي كانت ظاهرة في المدينة منذ نشأتها، وكانت اللغة السريانية تسمع في شوارع المدينة كلها.

وكان هناك عدد كبير من الناس في المدينة وحولها لا يعرفون اللغة اليونانية، هذا بالإضافة إلى أن عصر ليبانيوس كان يمثل قمة التفاعل بين الوثنية والمسيحية، ولم يكن بوسعه أن يتفهم العقيدة الجديدة، وأسلوب الحياة الجديد في المجتمع الأنطاكي[4] .

---

[1] دوائي : المرجع السابق، ص ١٥٣.

[2] فليب حتى : المرجع السابق، ج١، ص ٣٩٣.

[3] دوائي : المرجع السابق، ص ١٥٣.

[4] دوائي : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج١، ص ١١٤.

وعلى الرغم من هذا كله فقد سعى ليبانيوس إلى القيام بدوره بطريقتين، الأولى كمعلم للتقاليد اليونانية الوثنية، والثانية كمواطن بارز ناطق باسم المجتمع الذى حافظ على فضائل المدينة بتقاليدها القديمة، واعتبر أن فضيلة المدينة وقوتها، وكذلك الفضيلة التى تسبغها المدينة على مواطنيها، متصلة بجذور من الماضى دون أن تصاب بتغيير جوهرى.

وعلى الرغم من وجود الإمبراطورية البيزنطية وتقدم المسيحية الذى هدد بقاء الوثنية. كان ليبانيوس دائم اليقظة لحماية العدالة فى المجتمع، ومن خطاباته أو منشوراته تظهر إنسانيته الشديدة واهتمامه بالمحافظة على النظام، والطبقات العاملة مثل المزارعين والخبازين وصغار التجار، يضاف إلى ذلك المتهمين الذين ينتظرون المحاكمة، وأشار إلى ضرورة إقامة العدل الصحيح عند مثولهم أمام القضاء.

والحقيقة أن الإنسان حتى عصر ليبانيوس كان هو العنصر الرئيس فى نظرة المسيحية والوثنية إلى المجتمع، وكانت الحضارة اليونانية التى تعصب لها ليبانيوس هى حضارة الفرد، أما المسيحية فكانت دين تغيير حضارة الفرد، واعتقد ليبانيوس أن ما يراه هو النوع الذى يجب أن يكتب له البقاء[1].

وإذا كان ليبانيوس، يعتبر الممثل الأخير للثقافة الوثنية القديمة فى مدينة أنطاكية، فإن تلميذه يوحنا فم الذهب قد اكتسب شهرة كبيرة باعتباره أحد المبشرين العظام بالديانة المسيحية، وقد اكتسب لقب فم الذهب لأنه كان يملك موهبة الفصاحة الرائعة، وهى موهبة نادرًا ما وجدت عند الواعظين المسيحيين، سواء من سبقه منهم أم من أتوا بعده[2].

ولد يوحنا فم الذهب (٣٤٥ – ٤٠٧م) فى أنطاكية من أبوين مسيحيين كانت لهما مكانة مرموقة فى المدينة؛ فكان والده من أصل نبيل، بدأ حياته فى

---

[1] دوانى : المرجع السابق، ص ١٥٥.

[2] دوانى : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٥، أسد رستم، المرجع السابق، ج١، ص ١١٤.

الخدمة المدنية بالإمبراطورية ثم رقى بسبب كفاءتــه، ولكنــه توفــى صغير الســن فترك ولده الوحيد فى رعاية والدته الأرملة، وما ورثته الوالدة مكنها مــن إرســال ابنها يوحنا إلى كبار المعلمين فى أنطاكية ومــن بينهـم أندراجـاثيوس الـذى علمـه الفلسفة، وليبانيوس الذى علمه البلاغة.

وكان الأخير يرى فى يوحنا خير خلف له(1)، وكان يوحنا يمتلك موهبـة كبيرة فى الأدب والبلاغة، وقد شعر هو بذلك، ورأى استخدام هذه المواهـب فـى الخدمة المدنية، وقرر أن يدرس القانون، كما انضم إلــى الحلقـات الدراسـية التـى كان يعقدها أسقف المدينة، حيث كان الشبان يجتمعون فى حلقات لاهوتية، وكـان رجال الدين يرعون من يرجى منهم الخير لتشجيعهم علـى الدخـول فـى السـلك الكنهوتى.

وقد تقدم يوحنا فى علومــه حتـى وصـل إلـى الحد الـذى يؤهلـه للعمـاد، ووصل بعد ثلاث سنوات إلى درجة مرتل داخل الكنيسة(2)، وانسحب إلى كهـف فى الجبل المطل على المدينة لبعض الوقت للصلاة والتـأمل، وعـاش إلـى جـانب ناسك عجوز يدعى سيروس Cyrus مدة أربع سنوات، تعلم منـه فيهـا الحكمـة، ودرب نفسه خلال هذه الفترة على التحكم فى رغباته عن طريـق السيطرة علـى الجسد، والخلوة، وتناول قليل من الطعام، والصلاة المتواصلة.

وقد عاد يوحنا إلى أنطاكيـة عـام ٣٨٠م، بعد أن تغير تمامًا كمـا كـان يأمل، وشعر أنه مستعد لتكريس ذاته لخدمة المسيحية(3) ، وفى العام التـالى رسـم شماسًا(4) ، وبعد خمس سنوات رفع إلى درجة الكهنوت وأصبح عضوًا فى هيئـة الكتدرائية حيث كان يقوم بالوعظ، ويشترك فى الأعمال الرعويـة المختلفـة التـى قامت حول الكنيسة الرئيسة فى المدينة(5) .

---

(1) أسد رستم : المرجع السابق، ج1، ص ١٣٢.

(2) دوانى : المرجع السابق، ج1، ص ١١٣.

(3) أسد رستم : المرجع السابق، ج1، ص ١١٣.

(4) دوانى : المرجع السابق، ج1، ص ١٧٨.

(5) Attwater, Op. Cit., p. 198.

وخلال هذه المرحلة لم تكن الوثنية قد انقرضت تمامًا، بل على العكس، أظهرت صلابة شديدة في أنحاء كثيرة من الإمبراطورية في مواجهة المسيحية، وكانت مدينة أنطاكية أهم معاقل الوثنية، على الرغم من قيام الإمبراطور بإصدار سلسلة من الأوامر تمنع إقامة العبادات الوثنية، ولكن تنفيذ هذه الأوامر كان مؤقتًا.

ثم ما لبثت أن أصبحت حبرًا على ورق، على الرغم من هذا كله فقد كان على مواطني أنطاكية وغيرهم من مسيحيين ووثنيين أن يتعايشوا في عالم واحد، والمشاركة في ثقافة مادية واحدة، وفي أعمال ومهن يومية مشتركة، يضاف إلى ذلك أن يوحنا كان قد نما وترعرع أثناء فترة الخلاف الديني بين آريوس وأثناسيوس[1]، وهو الخلاف الذي قسم الجزء الشرقي من الإمبراطورية إلى قسمين.

وكان لذلك أثر كبير على مدينة أنطاكية، فقد كان يوحنا ومعاصروه يذكرون زمنًا كانت الأريوسية فيه الشغل الشاغل لأهل أنطاكية، لأن المدينة نفسها كانت إحدى معاقل الأريوسية[2].

وقد أدرك يوحنا مدى الحاجة إلى التعاليم المسيحية من الأنواع كلها وعلى المستويات كافة، ورأى أن في إلقاء العظات خير وسيلة لذلك وهي وسيلة ليست سهلة، ولكن يوحنا كان مؤهلاً لها، فقد ضمت جماعة المصلين في كنيسة أنطاكية مسيحيين من المستويات الثقافية كلها ابتداء من كونت الشرق إلى المزارعين والصناع والعبيد، يضاف إلى هؤلاء جماعات من الوثنيين الذين كانوا يفدون إلى الكنيسة خلسة ليعلموا شيئًا عن الديانة المسيحية.

واتصبت عظات يوحنا على التعليم الأخلاقي[3]؛ فقد كان المسيحيون يعيشون جنبًا إلى جنب مع الوثنيين، شركائهم في المواطنة، وكانوا في بعض

---

(1) متى المسكين : المرجع السابق، ص ٤٧٣ - ٤٧٦.

(2) دوائي : المرجع السابق، ص ١٨٢.

(3) Attwater, Op. Cit., p. 190.

الأحيان أقارب للوثنيين الذين علمتهم ثقافتهم أن غاية الإنسان على الأرض هى المتعة الجسدية، والنجاح المادى، وأن جسد الإنسان وسيلة مبهجة من وسائل المتعة.

كما أدرك يوحنا أن تعليم الأطفال وتفهم حاجاتهم أمر بالغ الأهمية. وأدرك أن أهم مراحل تعليم الأطفال تبدأ من المنزل، وأن السنوات الأولى هى التى تشكل عقل الطفل[1]. وبالإضافة إلى الوعظ أدرك يوحنا مسئولية المشاركة الإيجابية فى عمل الإحسان الذى كانت الكنائس جميعها مراكز له فى تلك المرحلة.

على العكس من الدولة أيام الإمبراطورية الوثنية التى لم يكن لها أية مسئولية تجاه المواطنين لتخفيف آلام الفقر أو البطالة أو العناية بالمرضى، وكان على الكنائس أيضًا رعاية الأرامل واليتامى والغرباء[2]، وفى عام ٣٨٦م رفع يوحنا إلى رتبة كاهن، وفى السنة التالية اضطرت حكومة الإمبراطورية إلى زيادة الضرائب لإعادة بناء الجيش الإمبراطورى بعد الهزيمة التى لحقت به فى معركة أدرنة (٣٧٨م) على أيدى القوط.

فانفجرت ثورة أنطاكية احتجاجًا على زيادة الضرائب، واتجه الأهالى إلى حاكم المدينة ولكنه لم يستجب لرغباتهم، فاتجهوا إلى أسقف المدينة ولكنه لم يكن موجودًا، واشتعلت الثورة وتسببت فى إشعال بعض الحرائق، وانتهى الأمر مؤقتًا باعتقال المتظاهرين[3].

وأدرك رجال الدين فى أنطاكية وعلى رأسهم أسقف المدينة حاجة الناس إلى المواساة، وقرر الاتجاه إلى القسطنطينية ليتوسط لدى الإمبراطور، وقبل المغادرة اختار يوحنا فم الذهب بصفته أفصح الكهنة ليلقى فى الكنيسة سلسلة من العظات حول هذه الكارثة.

---

[1] دوانى : المرجع السابق، ص ١٩٠.

[2] أسد رستم : المرجع السابق، ج١، ص ١١٤.

[3] دوانى : المرجع السابق، ص ٢٠١.

وانتهى الأمر بصفح الإمبراطور عن المدينة وإلغاء العقوبات التى نزلت بها عليها، وعندما توفى بطريرك القسطنطينية نكتاريوس Nawctarius (٣٨١-٣٩٧م) وقع الاختيار علـى يوحنا ليتولى منصب البطريرك (٣٩٨ - ٤٠٤م)، وعندما وصل يوحنا فم الذهب إلى العاصمة بـدأ الاهتمـام بشـئون الفقـراء والمساكين، وحث الرهبان على العمل المثمر.

وهاجم إسراف رجال البلاط وبذخهم ونـدد بهم، وفم تتج الإمبراطورة يودكسيا Eudoxia من ذلك، وعند هذه المرحلة اجتمع الحاقدون عليه ودعوا الإمبراطور إلى عقد مجمع دينى للنظر فى أمره، فعقد مجمع عرف باسم مجمع البلوطة Oak بالقرب من مدينة خلقدونية ٤٠٣م.

ورفض يوحنا المثول فى هذا المجتمع، فحرم من رحمة الكنيسة، وحكم عليه الإمبراطور بالنفى ورفض الشعب ذلك فتدخلت قوات الإمبراطورية وتجنبًا للصدام وافق يوحنا على الخروج منفيًا من المدينة، ولكن الإمبراطور ما لبث أن أعاده إلى منصبه، ولكنه عاد ونكل بالإمبراطورة مرة أخرى، وانتهت الأحداث بنفيه مـرة أخـرى فـى عـام ٤٠٤م إلـى جبـال طـوروس، وظـل فـى منفاه ثلاث سنوات كتب فيها كثيرًا من المؤلفات، وقد نقل من منفاه إلى منفى آخر فى إيبريا عند البحر الأسود فرحل إليه.

وأثناء رحيله وعند وصوله إلـى مدينـه كومانـة توفـى عـام ٤٠٧م[1]، وهناك عدد من الفلاسفة والبلغاء وأصحاب الفكر الوثنى والمسيحى درسوا فـى هذه المراكز الثقافية فى مصر والشام لا يتسع المجال فـى هـذا البحث للحديث عنهم، وأكتفى هنا بذكر نسطوريوس Nestorius، صـاحب المذهب النسطورى المسيحى الذى درس فى أنطاكية، وأصبح بطريك الإمبراطورية البيزنطية فـى القسطنطينية (٤٢٨ - ٤٣١م) والذى عزل من منصبه بموجب قرارات مجمع أفسوس (٤٣١م)، وقد نفى بعدها إلى مصر، وظل بها حتى وفاته[2].

---

(1) Attwater, Op. Cit., p. 198. انظر أيضًا:أسد رستم : المرجع السابق، ج١، ص ١١٥.

(2) بتلر : تاريخ الأمة القبطية - تعريب إسكندر تـادرس، مطبعـة مصـر، الفجالـة، ١٩٠١م، ج٢، ص ٣٤- ٣٥ .Hussey, Op. Cit., p. 20

مما سبق يتضح أنه كانت توجد مجموعة من المراكز الحضارية مختلفة الجوانب فى مصر والشام أثرت فى الحياة الثقافية فى القرون المسيحية الأولى، وأن العلماء الذين قامت على أكتافهم هذه المراكز كانوا من الوثنيين والمسيحيين، ولم يقتصر تحصيلهم للعلم على مركز واحد، بل إن معظمهم درس فى أكثر من مركز ثقافى سواء فى مصر أم الشام أم القسطنطينية أم أثينا.

كما أن العلماء الوثنيين الذين تمسكوا بعقيدتهم كان لهم طلاب تتلمذوا على أيديهم ثم اعتنقوا المسيحية ولعبوا دورًا كبيرًا فى صياغة الفكر المسيحى فى تلك المرحلة. ومن نتائج هذا البحث أيضًا أن الوثنية اهتمت بالفرد، بينما اهتمت المسيحية بالجماعة.

وأن الإمبراطورية الوثنية تعاملت مع اليهودية كدين، بينما تعاملت مع المسيحية فى بداية أمرها كمذهب سياسى معاد للإمبراطورية، ومن النتائج أيضًا أن مصر خرجت من الصراع الدينى بوحدة دينية متماسكة، وأنه كان لمصر مدرسة كبيرة واحدة، وهى مدرسة الإسكندرية.

بينما نجد أن النظام اليونانى كان له أثره الكبير على بلاد الشام -ربما حتى يومنا هذا- بدليل أننا نجد أن كل مدينة كانت تعتبر دولة فى حضارتها وثقافتها.

ونستنتج أيضًا أن مصر لم تتأثر بأى مذهب من المذاهب المسيحية التى سادت المنطقة فى تلك المرحلة، والدليل على ذلك أن نسطوريوس الذى نفى إلى مصر لم يتمكن من نشر مذهبه داخل البلاد، بينما انتشر مذهبه إلى الشرق حتى عمق آسيا والصين.

وفى الوقت نفسه أثرت مصر كثيرًا فى بلاد الشام وأبعد منها، وعلم القديس أثناسيوس الغرب الأوربى الرهبانية، وانتشر المذهب الأريوسى بعيدًا حتى وصل إلى معظم القبائل الجرمانية فى أوربا الشرقية والغربية وظل حتى نهاية القرن الثامن الميلادى تقريبًا.